مطالعات

فى سفر التكوين

اختمرت الفكرة بعد طول التمعن والاستبصار ، وكثرة التأمل والبحث ، وعمدت أن أكتب فى مطالعات استخلصها نقداً و تحليلا من سفر التكوين . وأردت أن أحلل فى مطالعاتى الأولى شخصيتين كبيرتين ليهوديين من أبناء ابراهيم ، بل ولدى عم أحدهما زعيم سياسى والآخر زعيم اجتماعى ، اسبغت عليهما روايات سفر التكوين ثوباً من القداسة وخصتهما برسالة من الله يؤديانها لأهل الأرض . أما الأول فالصديق يوسف . وأما الثانى فكليم الله موسى .

ولم أكد أبدأ بتنفيذ عزمى حتى وصلنى من الأستاذ الكبير جبر ضومط ، استاذ البيان بالجامعة الامريكية ببيروت كتاب خص الكلام فيه بنقد تحليلى فى سفر التكوين(١) فلم اشأ أن أطالع الكتاب قبل أن أكمل مقالى هذا حذر أن يكون للفكرات التى بثها الأستاذ فيه أثر فى تحويل مجرى الفكرة التى اختمرت فى رأسى من قبل ، وفضلت أن لا اكب على مطالعة الكتاب إلا بعد الفراغ من كتابة ما جال فى خاطرى من الفكرات ، وبذلك أكون أكثر قدرة على الاحتفاظ بحرية رأيى واستقلال فكرتى من جهة ، وأكون ابين خطة أزاء نقد ما كتب الأستاذ من جهة أخرى . ولعلى أستطيع أن أنقد الكتاب فى هذا العدد فاكون قد أديت واجباً وأرضيت ضميرى .

اعتقدت منذ زمان طويل أن أكثر الأسفار المقدسة لم تكن إلا دعوات سياسية اجتماعية قصد واضعوها إلى أغراض اختفت وراء ثوب القداسة التى أسبغ عليها . واعتقدت فوق ذلك أنى عجزنا عن تحديد الزمان الذى كتبت فيه أكثر هذه الأسفار والشك الذى يساور الباحثين فى حقيقة الأشخاص الذين كتبوها أو جمعوها ، أو المنابع

---

(١) « سفر التكوين » بحث نظرى فلسفى تشريحى لبيان من هو كاتب هذا السفر ؟ الذى هو أقدم سفر تاريخى فى العالم والغاية من كتابته ـ تأليف الاستاذ جبر ضومط ـ ظهر حديثا ببيروت أخرجته مطابع قوزما

التي استقوا منها بعض المعلومات أو القصص التي بثت فيها . هي أكبر الحوائل التي تحول دون درس هذه الأسفار درساً تحليلياً عميقاً يمكن من طريقه أن نستشف حقيقة الدعوات السياسية أو وجوه الاصلاح الاجتماعي التي ربى اليها أولئك المصلحون

خذ لذلك مثلا بسيطا في خروج ابراهيم من أور الكلدان ! فمن ذا الذي يستطيع إن يدعي القدرة على معرفة السبب الحقيقي في خروجه ؟ أن سفر التكوين لا يعرفنا عن ذلك شيئاً على وجه التقريب فهو على أن الله أمر ابراهيم أن يخرج من أور الى أرض كنعان من غير أن يحاول أبداء أي سبب سياسي أو اجتماعي معروف . على أني أرجح أن ابراهيم لم يخرج من أور الكلدان ويهبط أرض كنعان إلا هارباً مضطهداً كما هرب موسى من أرض مصر وكما تجول عيسى في أرض فلسطين وسوريا يختفي عن الانظار زمانا، وكما هاجر محمد من مكة إلى المدينة . ولعل السبب الأوحد الذي يمكننا أن نعزو اليه هجرة ابراهيم راجع الى الاختلاف على قصة الخلق والطوفان. فان النزعة الدينية العبرانية التي تتجلى في نفسية بطارقة اليهود العظام والتي ورثوها بالمضرورة عن جدهم الاعظم ابراهيم. إنما تدل ترجيحاً على أن السبب في هجرة إبراهيم يرجع إلى خلاف ديني . فاذا قارنت قصة الخلق الكلدانية الآشورية وقصة الطوفان بالروايتين الشعريتين اللتين وردنا في سفر التكوين ، وهي روايات لابد من أن تكون قد تنوقلت على مدي أزمان طويلة بين العبرانيين وتلاقحوها بعضهم عن بعض، فانك تجد خلافا يسيرا في الوقائع والاسماء بهو في الراجح السبب في خروج ابراهيم مضطهداً من أور الكلدان . فان «أوت نابشتيم» الذي ضمته الآلهة إلى مصافهم وهو إنسان، والسبب في الطوفان الذي أهلك أهل الأرض وأحياءها ، وبناء الفلك، كل هذا له في سفر التكوين ما يناظره مع اختلاف في الاسماء والنسبة العصبية فان «أوت» استبدل «بنوح» ، وهنا يجب أن نلاحظ الوزن اللفظي، ثم صار جدا لابراهيم من طريق أولاده حام وسام ويافث . ثم يترك سفر التكوين حاما و يافث ويمضي في روايات الجد الاكبر لليهود «سام» الذي اليه ينسب الساميون . فلو اننا استطعنا أن نعرف سبباً من الظروف السياسية والاجتماعية التي حوطت ابراهيم ، إذن يكون في مقدورنا أن نثبت حقيقة الدعوة التي ذهب إليها ابراهيم وكانت على الارجح السبب في هجرته إلى أرض كنعان، و إذن يمكننا أن نحلل الروايات

المقدسة تحليلا سياسيا اجتماعياً ونخلع عنها ثوب القداسة الذى أسبغ عليها لاغراض لاتخفى على الباحث الخبير .

وتبدأ قصة الطوفان البابلية بأن نذيره قد غشى « أوت » (نوح البابلى) فى حلم من الاحلام ، إذ سمع صوت الآله يقول :

« أنت يارجل « شوريباق » يابن « أوبارا توتو » حطم بيتك وأغفل متاعك وملكك وانج بحياتك . أترك امتعتك ونج حياتك واجمع من كل بزرة حية من كل نوع وادخل بها فى الفلك »

أما السبب فى سفر التكوين فغضب الله على أبناء الارض وتخليصاً لانباء الله منهم ، وان الله أراد أن لايدين روحه فى الانسان الى الأبد بعد أن تناسل أبناء الله من بنات البشر . وفى القصة البابلية إشارات كثيرة إلى مثل هذا الزعم الغريب . وفيماعدا ذلك تتفق القصتان اتفاقا غريباً فى بناء الفلك وفى تحديد مقاييسه وفى حمل الاحياء فيه و إرسال الطيور من الفلك لترى ان كانت المياه قد انحسرت عن رؤوس الجبال وفى الطوفان وتهطال المطر إلى غير ذلك . فالراجح من كل هذا ان ابراهيم الذى نقل نواة هذه الاقاصيص البابلية معه من أور الكلدان إلى أرض كنعان لم يحمل على الهجرة الا لخلاف دينى أضطره إلى الهرب بعد أن اعتبر هرطوقا عند أهل بابل . وإذا صحت روايات سفر التكون ، لامن جهة الواقع بل من جهة رواية الأقاصيص كما كانت شائعة فى عهد كتابة السفر ، صح عندنا هذا الرأى ، وعلى الأخص إذا تذكرنا أنه بعد ذكر أولاد نوح ونسبة ابراهيم إلى سام ، لاتخلص من السفر بشىء إلا بتاريخ أولاد ابراهيم إلى آخر زمان يوسف الصديق فى ارض مصر

كل هذا يحملنا على أن نعتبر سفر التكوين أخطر الأسفار التاريخية التى وصلت الينا عن القدماء وان فيه من الشخصيات التى مثلها بطارقة العبرانيين على توالى الازمان ما يجدر بنا أن ندرسه درساً قيما فى نور الأساليب الحديثة ، وأننا لن نكون أصحر أياً أو أوضح طريقة منا إذا عمدنا إلى درس الحالات التى قامت من حول كل منهم وبيئاتهم والازمان التى أظلتهم والحالات الاجتماعية التى خضعوا لها وعملوا على أن يدمغوها بالطابع الذى قام فى أذهانهم أو أن يصوروها بالصورة التى ظنوا أنها جديرة بالانسانية .

بعد هذه المقدمات لانرى من موجب لزيادة الشرح والبيان عما يجول بخاطرنا من الفكرات حول هجرة ابراهيم من أور الكلدان. غير أنه لايجدر بنا أن نغفل فى هذا البحث أمراً آخر يدور حول ابراهيم وحول معتقده الدينى. وهذا الأمر على اختصار القول ينحصر فى أن ابراهيم كان موحداً، فى حين كان الكلدانيون من المكثرين.

إن قصه الخلق البابلية وكذلك قصة الطوفان، كلتاهما تدلان على أن البابليين والكلدانيين كانوا من المكثرين. كانوا يجرون على نفس القاعدة التى جرى عليها اليونان والرومان فى معتقداتهم الدينية، بل جروا على نفس القاعدة التى جرت عليها كل الأمم القديمة التى وصل الينا طرف من اخبارهم وأديانهم. ولاجرم أن الذى يقول لا اله إلا الله، فى بيئة ماعرفت من الله إلا أنه رئيس آلهة كثيرة، يعتبر دوطوقاً. ولعل هذا هو السبب فى هجرة ابراهيم من أور الكلدان الى أرض كنعان

والدليل القاطع على هذا أن الرب تجلى عدة مرات لابراهيم وهو الذى أمره أن يغادر أور الكلدان إلى أرض كنعان. كذلك نجد أن الله تجلى مرة أخرى لابراهيم بعد أن انفصل عنه لوطاً وسكن أرض سدوم، وأن الله وعد ابراهيم، خليله وصفيه بأن يهبه ونسله كل الأرض، وأن نسله سيكون بعدد الحصى والتراب.

ثم نجد من بعد ذلك سفر التكوين وقد حصر رياسة العبرانيين سياسياً ودينياً فى اسحق، باعتباره وارث ابراهيم أبيه، دون اسماعيل. ذلك لأن اسماعيل كان ابن أمة هى هاجر، وأن اسحق كان بن أميرة هى سارای أو سارة. إذن كان ابراهيم رئيساً دينياً وسياسياً معاً، وأنه أورث هذه الرياسة لابنه اسحق. وإذن كان ابراهيم أحد بطارقة العبرانيين الكبار. فهل يمكن أن يكون لرجل موحد مقام فى أرض تكثير من غير أن يكون ذلك الأمر سبباً فى الاحتكاك الفكرى؟ ذلك بعيد كل البعد، لاسيما إذا تذكرنا أن ابراهيم كان ذا منازع دينية، وأنه كان يحكم وجوده ذا رئاسة دينية، وأنه كان من الذين يتجلى لهم الله.

خذ بعد ذلك كل القصص الكلدانية التى حشيت فى سفر التكوين، تجد أن هذا السفر قد انتحل كل ما كان لدى البابليين من المعتقدات فى الخلق والطوفان وما يليهما، ماعدا أمر واحد، هو التوحيد. إذن فالدين اليهودى عبارة عن اقاصيص بابل منسوبة

إلى الله الواحد الأحد . دون بعل وشركاه . وإذن يكون مابقي بعد ذلك من العبارات التاريخية كناية عن تاريخ كامل لقبائل العبرانيين وأصلهم وتفرعهم .

***

يوسف الصديق أحد الاسباط الاثنى عشر أولاد يعقوب — اسرائيل — وأصغرهم سناً وكان ابن سبع عشرة سنة يرعى الغنم وهو غلام عند بنى بلهة و بنى زلفة امرأتى أبيه . وكانت نمائم تنم ووشايات يوشى بها على غير علم من يعقوب، فأتاه بها يوسف وأطلعه عليها . وكان اسرائيل — يعقوب — يحب يوسف حباً جماً لانه فضلا عن صغر سنه وأنه ابن شيخوخته. كان صادق القول كبير النفس فيه كل الصفات التى تؤهل به إلى زعامة سياسية اجتماعية عليا ، وكان من فرط حبه ليوسف أن صنع له قميصاً ملونا بألوان . فاصبح هذا الأمر دليلا عند اخوته على أن يعقوب يحب يوسف أكثر من اخوته فأبغضوه و بيتوا له على ضغينة .

والظاهر كل الظهور أن يوسف من طينة العبرانيين خالص من كل شائبة . فان أحلامه التى كان يحلمها والتفسيرات التى كانت تفسر بها تنم على أن العبرانيين حتى عهد يوسف، لم يخلصوا من الوراثة البابلية الكلدانية . فان كل ألواح بابل وكل الأقاصيص التى تقص فيها إنما تقوم على احلام أو تبدأ بأحلام هى عندهم بمثابة الوحى الهابط من سماء الغيب . وسفر التكوين ينص على أن يوسف حلم حلمين ، ترك القرآن احدهما واثبت الآخر . أما الحلم الأول فعلى انه حلم انه واخوته يحزمون حزما فى الحقل فانتصبت حزمته وسجدت لها بقية حزم اخوته . فقالوا له — أفعلك تملك علينا ملكا أو تتسلط علينا تسلطا . و هذا لم يثبته القرآن . ثم حلم مرة أخرى فرأى أن الشمس والقمر واحد عشر كوكباً قد خروا له ساجدين . وهذا ما أثبته القرآن و به تبدأ قصة يوسف فيه . ذلى أن أباه قد انتهره وقال له — « هل تأتى أنا وأمك واخوتك لنسجد لك إلى الأرض » .

ينص القرآن على أن أخوة يوسف احتالوا على أبيهم ليرسل معهم يوسف يرتع و يلعب وأنهم له لحافظون ، فتردد يعقوب حذر أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون . أما سفر التكوين فينص على

أن يعقوب ارسل يوسف وراء أخوته يقتص خبرهم وهم يرعون الغنم — وكانوا قد هبطوا ناحية يقال لها شكيم ، فذهب اليهم من وطاء حبرون حتى إذا أتى شكيما ضل فى الحقول سعيا وراء اخوته حتى أرشده مرشد الى حيث نزلوا بعد ارتحالهم من تلك الأرض ، فذهب اليهم فى ناحية يقال لها دوثان .

فلما أبصروه قالوا « هوذا صاحب الأحلام قادم » وأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه وأن يقولوا لأبيه أن وحشاً أكله . فلما سمع رأوبين أحد اخوته هذا الرأى صرفهم عنه وقال لهم لاتسفكوا دماً ، بل ألقوه فى البئر «التى فى البرية » فلما جاءهم خلعوا عنه قميصه الملون وطرحوه فى البئر .

ثم جلسوا ليأكلوا وإذا قافلة من الاسماعيليين قادمة تقصد مصر بتجارها . وهنا اقترح يهوذا أخوهم بأن يبيعه إلى الاسماعيليين ، فأخرجوه من البئر وباعوه بعشرين من الفضة «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين» ثم أخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً وغمسوا القميص فى الدم ثم أحضروه إلى أبيهم وقالوا له حقق أهذا قميص ابنك أم غيره . فلما حقق أنه قميص يوسف حزن حزناً عميقاً إذ اعتقد بأن وحشاً أكله

أما رواية القرآن فتقول

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا ياأبانا إن ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» على أن رواية أنهم جاؤوا على قميصه بدم كذب متفقة فى كلا السفرين : القرآن وسفر التكوين

أما المديانيون — الاسماعيليون — أى أهل مدين الذين ورد ذكرهم فى قصة موسى — فبعد أن نزلوا مصر باعوا يوسف إلى فوطيفار خصى فرعون ورئيس الشرطة فى ذلك الحين .

غير أن القرآن لايعين إسم من اشترى يوسف فى مصر ولا مركزه الاجتماعى ولا يعين إن كان خصياً أو غير خصى ولعل فى الترجمه العربية إختلافاً عن الأصل العبرانى فى تعيين أنه خصى لأنك لاتلبث على روايه سفر التكوين غير قليل حتى تجد أن البركة حلت بيت المصرى بسبب نزول يوسف فيه وأن المصرى ترك كل أمره ليوسف ،

حقله وبيته، وأن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت اضطجع معى فأبى وقال لامرأة سيده هو ذا سيدى لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد رفعه إلى يدى. ليس هو في هذا البيت أعظم مني ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر وأخطىء إلى الله. وكان إذ كلمت يوسف يوما فيوما أن لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها (١)

ورواية القرآن تتفق مع رواية سفر التكوين في هذا — « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون » — على أن سفر التكوين ينفى نفياً باتاً أن يوسف مال اليها، في حين يقول القرآن — « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين »

ثم رواية القميص. تجد أن سفر التكوين قد نص على أن يوسف دخل البيت ليقضى أمراً فأمسكت به زوجة فوطيفار ليضطجع معها. فترك ثوبه في يدها وهرب فنادت أهل بيتها وقالت — « أنظروا. قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا. دخل إلى ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج. فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته. فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل إلى العبد العبراني الذي جئت به الينا ليداعبني وكان لما رفعت صوتي وخرجت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج » (٢)

واليك رواية القرآن مسوقة من غير انقطاع — « واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم. قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين »

« ١ » تك إص ٣٩ : ٧ الى ١٠ .

« ٢ » تك إص ٣٩ : ١٤ الى ١٨

أما سفر التكوين فيغفل قد القميص وشهادة الشاهد ويغفل اقتناع سيدها ببرهان الشاهد، ويرسل يوسف إلى السجن ليلقى جزاء ماقدمت يداه. على أن رواية القرآن قاطعة فى اقتناع السيد بخطأ زوجته. ولذا لا تجد فى روايته أى مسوغ لسجن يوسف فيما بعد.

ويسوق القرآن رواية أخرى لا تجدها فى سفر التكوين من أثر أو إشارة تلك هى رواية النسوة اللائى تكلمن فى أمرها وأمر يوسف — «وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً انا لنراها فى ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشراً ان هذا إلا ملك كريم. قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين» (١)

ولا شك عندى مطلقا فى أن رواية القميص وشهادة الشاهد على الصورة التى سيقت فى القرآن لم يكن لها من موضع إلا أن يصح التعقيب عليها برواية النسوة والمائدة. وإلا فلماذا يستحق يوسف السجن حتى بعد اعتراف زوجة فوطيفار بأنها راودته عن نفسه وانه استعصم. والدليل القاطع على هذا أن القرآن يقول — «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين» (٢)

كذلك تتفق رواية القرآن وسفر التكوين فى أنه دخل معه السجن فتيان ساقى ملك مصر والآخر خبازه وأن أولها حلم أنه يسقى ربه خمراً إلا بعض تفاصيل فى أنه رأى الكرم والعنقود وأنه عصر العنقود وسقى فرعون، وقد أهملها القرآن. وأن الثانى رأى انه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، مع بعض تفاصيل أهملها القرآن كذلك — وقد فسر يوسف الحلمين فقال للأول أنه يعود إلى سقاية فرعون، وقال للثانى أنه سيصلب فيأكل الطير منه. وكذلك تتفق الروايتان فى أن يوسف طلب إلى الساقى أن يذكره عند فرعون، وأنه نسى أن يذكره، أما القرآن فينص

---

١ — يوسف: جزء ١٢

٢ — يوسف: جزء ١٢.

على أنه نسى بضع سنين ، فى حين أن سفر التكوين ينص على أنه نسى من غير أن يحدد كم لبث فى السجن من بعد ذلك (١) غير أنه يعود فى أول الاصحاح الحادى والأربعين يحدد الزمان بسنتين اثنتين تعييناً فيقول — « وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً » (٢)

« وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأ كلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » (٣) ويتذكر رئيس السقاة يوسف ويفسر يوسف الحلم بأن مصر سيصيبها سبع سنين من القحط تتقدمها سبع سنين من الخصب والخير الكثير ، وأنه يجب أن يكون على خزائن الأرض قوى أمين يخزن لسنين القحط من سنين الخصب . وكان أن الملك اختار يوسف ليكون على خزائنه — « قال أجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين (٤)

إلى هنا تنتهى رواية يوسف باعتبارها ترجمة عن حياته وتبدأ روايته باعتباره وزيراً ملكيا متفانيا فى حب الملكية ، حتى لقد بلغ منه حب الملكية واعتقاده بأنها أصلح صور الحكم أن عمل على أن تكون كل ملكية الأراضى من حق الملك وأن يكون له الناس عبيداً يسخرون لأمره يزرعون ويحصد ويجمعون ويخزن . على أننا لا يحسن بنا أن نسوق الكلام فى هذا الأمر من غير أن نرجع إلى سفر التكوين ننقل منه فقرات سوف نحتاج إلى أن نذكر بها القارىء فى سياق بحثنا هذا . جاء فى سفر التكوين (٥)

« ولم يكن خبز فى كل الأرض ، لأن الجوع كان شديداً جداً ، فخورت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع ، فجمع يوسف كل الفضة الموجودة فى أرض

---

(١) القرآن — « وقال للذى ظن انه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين — » سفر التكوين — « ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه » إص ٤٠ : ٢٣ .

(٢) يلاحظ أن بضع سنين أكثر من سنتين .

« ٣ » يوسف : جزء ١٣ .

« ٤ » يوسف : جزء ١٣ .

« ٥ » تساق الرواية هنا بعد هبوط يعقوب أبيه وأخوته وكل أهله مصر وبعد أن مرت سنى الشبع فى أرض مصر

مصر وفى أرض كنعان بالقمح الذى اشتروا . وجاء يوسف بالفضة إلى بيت فرعون، فلما فرغت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين أعطنا خبزاً ، فلماذا نموت قدامك لانه ليس فضة أيضاً فقال يوسف هاتوا مواشيكم فاعطيكم بمواشيكم إذ لم يكن فضة أيضاً . فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف . فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل وبمواشى الغنم والبقر وبالحمير . فقاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم » (١)

« ولما تمت تلك السنة أتوا اليه فى السنه الثانية وقالوا له لا نخفى عن سيدى اذ قد فرغت الفضه ومواشى البهائم عند سيدى لم يبق قدام سيدى إلا أجسادنا وأرضنا (٢) لماذا نموت أمام عينيك نحن وارضنا جميعاً . اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون . واعط بذاراً لنحيا ولا نموت ولا تصير أرضنا قفراً » (٣)

« فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون . إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم فصارت الأرض لفرعون . وأما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حد مصر إلى أقصاه (٤) إلا أن أرض الكهنة لم يشترها . إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون . فأكلوا فريضتهم التى أعطاهم فرعون . لذلك لم يبيعوا أرضهم (٥)

« فقال يوسف للشعب إنى اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون . هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض . ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمساً لفرعون . والأربعة الأجزاء تكون لكم بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولمن فى بيوتكم وطعاماً لأولادكم . فقالوا احييتنا ليتنا نجد نعمة فى عينى سيدى فنكون عبيداً لفرعون . فجعلها يوسف فرضاً على أرض مصر إلى هذا اليوم (٦) لفرعون الخمس . إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون »

* * *

ليس لنا أن نشك فى أن فرعون قد حلم وأنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع

«١» يلاحظ هنا أن سياسة يوسف كانت ترمى الى تقوية الملكية . فبعد أن أخذ الفضة وجمع المواشى الى بيت فرعون أخذ من الاهالى الارض أيضاً لتكون من حق الملك .

«٢» اشارة إلى أن الارض كانت ملكا للاهالى قبل أن يبدأ يوسف بتنفيذ سياسته الاجتماعية .

«٣» تعبير صادق عن حقيقة السياسة التى اتبعها يوسف .

«٤» يلاحظ هنا أن التحديد اعتبارى صرف

«٥» ظاهر جداً أن يوسف استعان بسلطة الكهنة الدينية على اخضاع الشعب .

«٦» اشارة إلى أن سفر التكوين قد كتب فى تلك الايام أو بعدها بقليل .

عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . ولكن الذى لنا أن نشك فيه هو أن سني الشبع وسنى القحط قد وقعت كما تنص عليه رواية سفر التكوين . لهذا نعتقد اعتقاد تغليب أن حلمى فرعون قد اتخذهما يوسف ذريعة سياسية استغلها ليخرج الأرض والأموال من يد الشعب إلى يد الملك . ولدينا على ترجيح هذه الفكرة مبرران الأول تفانى يوسف فى سياسته الملكية واعتقاده أن الملك يجب أن يكون ملكا إلى آخر ما يمكن أن يذهب معنى الملكية فيكون صاحب الأرض وصاحب القضة وصاحب القوت . والناس له عبيد يستغلهم كيف يشاء وعلى الوجه الذى يريد . والثانى أن يوسف أراد بذلك أن يستعبد الأهالى (المصريين) لملك اجنبى يريد من طريق استعبادهم أن يسخرهم فى المحافظة على عرشه الذى أخذه من ملوك مصر اغتصابا . فاذا جمعت بين السببين ، اعتقاد يوسف السياسى ، والحاجات التى قامت فى ذلك العصر خرجت من ذلك بفكرة عامة تؤيد ما نذهب اليه من رأى .

وهنا يجب علينا أن نأتى على بعض حقائق تاريخية نستخلصها من تاريخ ذلك العصر الذى حكم فيه يوسف مصر (١) فالمعروف أن الأسرة الثالثة عشرة قد انتهى عهد حكمها فى مصر وسط اضطرابات أهلية كبيرة كما دل حكم ملوك الأسرة التى تلتها وقصر مداه على أن روح الفراعنة كانت قد أخذت تضمحل وتضعف . لذلك انتهى الامر بأن تقلص ظلهم وباد مكلهم . لهذا عاثت قبائل اسيوية فى أرض مصر فسادا بعد أن استقوت على أهلها . ويعرف هؤلاء بالهكسوس أو الرعاة وكان أكثرهم من العنصر السامى أصلا . ولقد حكم هؤلاء بلاد مصر أكثر من ٦٦٩ سنة وحكموا وادى النيل فى ثلاثة أسر تربعت على عرش مصر تتابعا . ولقد كان لاستبدادهم وتخريبهم أثر ظل ثابتاً فى عقلية المصريين ولم يمح منها أبداً . فقد بدؤوا حكمهم بالتحطيم والتحريق والسرقة والنهب ، ثم تربعوا من بعد ذلك فى مفيس وصان ومن هنالك امتدت سلطتهم إلى أرض مصر جميعها . غير أن هؤلاء الغزاة لم يلبثوا أن خضعوا لمقتضيات الحضارة المصرية فاصطبغوا بالثقافة الفرعونية القديمة ، حتى لقد أصبح المغزو بالقوة غازياً بالتسلط الأدبى ، فاصبح الرعاة فراعنة بالاسم دون

---

(١) راجع كتاب ماسبرو Early Israel ص ١٥٨

الفعل . فانتحلوا عن المصريين عاداتهم وطرق معيشتهم والقابهم الملكية والأميرية ، ومع الزمن اخذوا طريقة التعليم والكتابة . وكان بلاطهم مملوء بالموظفين المصريين ، وأعيد بناء المدن والهياكل ، وأصبحوا القوامين على الآداب والثقافة المصرية البحتة. والدليل على هذا أن المقالة الرياضية الوحيدة التي وصلت الينا عن المصريين القدماء قد أهديت إلى ملك هكسوسي عنواناً على أنه من حماة العلم . على هذا نجدان المصريين قد استقووا على ملوكهم الأجانب من الناحية الأدبية ، ماعدا امراً واحداً هو الدين ، فانهم بقوا على دين أجدادهم ، كما بقي الهكسوس على معتقداتهم القديمة التي أتوا بها من جوف آسيا . فقد ظلوا يعبدون آلهاً سامياً شبيهاً « بعل » الكلداني ، أسبغوا عليه اسما انتحلوه عن الحثيين فسموه « سوتخ — Sutekh — وحاول أحد ملوكهم أن يلزم المصريين عبادته غصباً فكان ذلك سبباً في بدء حرب الاستقلال التي انتهت بطردهم من مصر . فقد أرسل الملك أبوفيس الثالث — Apophis — من ملوك الأسرة السابعة عشرة إلى « اسكنتن رع » أمير طيبة يأمره بأن يقلع عن عبادة « آمون » آله طيبة وان يدين بعبادة الآله الذي يعبده الملك . فقاوم الأمير هذه الأرادة، وكان ذلك بدء حرب استقلال طويلة دامت أكثر من خمسة أجيال (١٥٠ سنة) وكانت النتيجة أن انتصر المصريون على غزاتهم وبذلك عاد الهكسوس إلى آسيا ، واعترف بعد ذلك بأمير طيبة فرعوناً على مصر المتحدة سنة ١٦٠٠ ق . م .

وحدث في زمان حكم الهكسوس أن زار ابراهيم شمال مصر (الدلتا) . عندما كانت مدينة « صان » مقر حكمهم بالقرب من الحدود الآسيوية ، كما كان لهم على الحدود نفسها قلعة حصينة تدعى أفاريس — Avaris — وكانت اقامتها حيث هي لتكون ذريعة لغزوات الأشوريين من آسيا وسيفاً مسلولا على رأس المصريين في أفريقية .

والراجح جداً أن فرعون يوسف الصديق هو أبوفيس الثالث بعينه الذي بدأت في زمانه الحرب الاستقلالية ، فكأن الوزير العبراني قد شهد بدء الحرب وقدر لها نتائج كانت سياسته نتيجة لتقديراته .

الهكسوس غزاة فاتحون . ومهما جرى عليهم الزمن في أرض مصر فانهم ولا شك كانوا أقلية تحكم أكثرية بالقوة . فاذا قامت حرب استقلالية وعلى الاخص اذا

كان لهذه الحرب علاقة بالدين و بآمون كبير آلهة مصر كان لها أثرها الكبير فى زعزعة الملك وهز العرش من أساسه. فاذا تذكرنا أن سلطة الهكسوس لم تكن من القوة والمقدرة البالغة بقدر ما كانت فى شمالى مصر، وأنها كانت ضعيفة فى صعيدها. عرفنا لماذا بدأت الحرب من الجنوب ولم تبدأ من الشمال. أضف الى ذلك أن نظام الحكم فى مصر القديمة كان نظاماً كهنوتياً أولا وقبل كل شىء. وكثر ما نرى أن الكهنة استطاعوا أن يخضعوا الملوك وأن يخلعوا ملوكا عن عروشهم. من هنا نستطيع أن نعين على وجه التقريب مركز الهكسوس أزاء شعب كالشعب المصرى أريد به أن يغلب على أمره حتى فى أمر دينه وسط نظام قائم على السلطة الكهنوتية منذ أبعد الأزمان.

ثم يجب علينا أن نتذكر ان بين الهكسوس ، بين العبرانيين علاقة المزاج على الأقل (١) فهما عنصران اسيويان ساميان. ولا يبعد أن يكون بين مقتعداتهما الدينية من القرب بقدر ما كان بين مزاجهما التكوينى. لهذا لا يكون من البعيد عقلا ان يتخذ ملك هكسوسى (أبو فيس) وزيراً عبرانيا (يوسف) ليتعاونا فى وقت شدة على اخضاع شعب كلاهما عنه غريب بل أن فى اخضاعه كل ما يمكن أن يتطلعا اليه فى الحياة. لا سيما اذا اجتمعت المطامع الملكية من نفس الملك، مع المطامع الاصلاحية فى نفس الوزير.

و يحلم الملك الهكسوسى أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر و أخر يابسات (٢) ثم يولى يوسف على خزائن الأرض ويجمع كل الحبوب فى مخازن الملك و يذر الحب فى سنبلة إلا ما احتاج اليه. و يحتاج المصريون إلى حب للبذار فلا يجدون الا فى مخازن الملك. و يظل يوسف يعطيهم الحب للبذار سبع سنين و يجمع ما تخرج الأرض سبع سنين. فاذا منع عنهم حب البذار فى أول السنة الثامنة فهنالك ولا شك القحط وهنالك ولا شك الدمار والخراب. ومخازن الملك مملوءة بما يكفيه و يكفى الناس، ثم يجمع الفضة و يجمع المواشى ثم يشترى الأرض للملك. لماذا ؟

سياسة معقولة فى زمن انتقاض وفتنة يقصد بها الاستقلال التام. يصبح المصريون عبيداً للملك يسخرهم كيف يشاء. فيجعلهم مستفلحين أو مجندأ باللقمة. من صلح منهم

---

١ — من رأى بعض نقاة الباحثين أن الهكسوس عنصر عبرانى بالفعل

٢ — ولا يبعد أن يكون ذلك حادث مفتعل اذاعه يوسف ليستغله سياسيا وان كان العقل يمكن أن يسلم بأن فرعون من المحتمل أن يكون قد حلم ذلك الحلم.

لافلاح الأرض فلها ومن صلح منهم للجندية فيساق إلى جند أمير طيبة يدافع رغم أنفه عن ملكه الهكسوسى ووزيره العبرانى.

بقى أمامنا شيء واحد هو ان الحرب الاستقلالية كانت فى بدء شبوبها عندما استوزر الملك الهكسوسى (بن عمه) النيل العبرانى. ولا جرم أن السياسة التى اتبعها يوسف لسياسة هى من اجدر السياسات برجل يزن الظروف القائمة من حوله وينظر الى أبعد اطراف المستقبل ويقدر اسوأ التقديرات.

هذا مانرى فى قصة يوسف وفى احتمالاتها التاريخية. وسنعود فى العدد القادم الى الكلام فى هبوط العبرانيين الى مصر وخروجهم منها لنستخلص من قصة موسى شخصية اخرى هي شخصية الزعيم السياسى. والراجح ان هذه الشخصية لم تظهر الا بعد أن خرج الهكسوس من مصر. لانه لايعقل ان يستبد هكسوسى بعبرانى بل أن الاستبداد بالعبرانيين لم يبدأ الان بعد أن حكم مصراهلها انتقاماً من الهكسوس ومن وزيرهم الذى استطاع ان يطيل مدة الحرب الاستقلالية خمسة اجيال متتابعة.

اسماعيل مظهر

اطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

نزعة الفكر الأوروبى